خواطر في الموسيقى

للاديب يوسف افندي غصوب

بمناسبة نشر حضرة القس بولس الاشقر كتابهُ في الموسيقى الشرقيَّة

ايتها الموسيقى ! المنتشرة ارواحها في بطون الغابات ، المرفرفة ملائكتها فوق عوارب الامواج ، الكامنة جنودها في جوانب الغيوم

ودِدتُ لو تُفرغين في شقّ يراعتي من زفير ارواحك ، وحنين ملائكتك ، ودوي اجنادك ، لفظاً يكون على الآذان ، كالالحان

لفظاً يُنظَم كاللآلئ ، تُناط بالأجياد

لفظاً يتمُّ بهِ وصفُكِ ، ويحلو بهِ مدحكِ

. . .

ايتها الموسيقى !

انتِ نشيد الطبيعة ، المتصاعد من فجاج الارض ، السائر في اهتزازات الاثير ، المتَّصل بعنان السماء

ليس في الكون من ناطق او جماد ، الّا ولهُ موسيقاه ، يترنَّم بها ويرسلها صلاةً الى رب الكائنات :

الطير في وُكُناتها ، والامواج المتلاطمة على قاعات الصخور ، السواقي في وهادها ، والغابات الممتدة في منفسحات الارض ، كل الكائنات ، تُصعد اناشيدها في الفضاء ، على اختلاف اصواتها ، وتباين نغماتها

. . .

خرج الراعي ذات يوم يتقدَّمه قطيعه الى منحدَر الجبل

وكان الليل تكاد تذهب بهِ هجمات النور

فالنجوم في ارتعاش واستتار

والطبيعة تنتفض ناهضةً من رقادها

فجلسَ على صخرة ملساء.

وامامه وادٍ لهُ فوهة كفوهة الجحيم ، تأخر فيه الليلُ فلا ترى فيه الّا ظلاماً

وهناك الى يمينه غابةٌ من الصنوبر كانها اشباح هائلة تطلب قمّة الجبال وقريباً منهُ ساقية صافية تنساب مترقرقةً بين مشتبك القصب المائل ، واخذت الطير في نشيدها وتنهّد الوادي فرنّت انفاسه بين انابيب القصب وفروع الصنوبر وأصاخ الراعي فاذا اصواتٌ رخيمة ونغمات مختلفة تجتمع مُؤتلفةً وتمتدّ منتظمة ثم تدور ذاهبة في الفضاء صُعُدًا كأنها بخور يتهادى على اجنحة الهواء ، او كأنهـا ارواح الارض تتسارع الى استقبال ملكة النور

فقال الراعي في نفسه : أيمن القصب ينبعث هذا الصوت

ثم عمد الى قصبة فثقبها ونفخ فيها

وكانت أوّلَ آلة من آلات الموسيقى

. . .

واعتلى العربيُّ سنام ناقته ، وسار في الارض يخدّ في مفاوزها

ومرّت الرياح بين كثبان رمالهـا ، فاسمعت في سكون الليـل ، تحت السماء الزاهرة ، وفوق بحار الرمال الجامدة ، صوتاً كانهُ زفيرُ الأيامى

فاصغى اليه ، وقد انثنى بخصرته ، وارتجفت انياط فؤاده به

فاندفع يحدُو حادياً :

خلِّ المطايا تنيم الجنوبا ان لها لنبـأً غريباً

. . .

ايتها الموسيقى !

ضواري الوحوش يسطو عليها الطيفُ اهتزازاتك .

وصغارها تسكر بانغامك

فالسباع صاغرةٌ تمدُّ آذانها

والافاعي منسابةٌ تدور على نفسها رافعةً رؤوسها

فكيف بالاكباد ، وهو مستودع العواطف ومقرّ الشواعر

. . .

من اقاصي الارض الى اقاصيها
تلقَّتْكِ الشعوب وتنافست بك الامم
المصريون نقشوا آلاتكِ على راسخات آثارهم
والعبرانيون هدموا بابراقك عاليات الاسوار
واليونانيون فتأوا بك سورة الجحيم
والاعراب روَّضوا بانغامك ضاريات السباع
داود تغنَّى بزاميره امام تابوت العهد
وهرميرس تغنى بالياذته على صخرة امام البحر
والرشيد في عظمة ملكه واتساع قدرته استسلم لنغمات ابراهيم الموصلي

...

فما انتِ ايتها الموسيقى ؟!
أأنتِ خمرة تجتمع عليها القلوب؟
ام لغة تتفاهم بها النفوس ؟
الرقص حركات منتظمة تسرُّ بها العيون ، وتروِّض بها الاعضاء
والتصوير الوان مختلفة وخطوط مرتبة تسرُّ بها الطبيعة وتحفظ بها الى قادمات العصور
والبناء عرش الفخار ، وتاريخ الدهر
واما أنتِ فحركات النفس ، وتصوير العواطف ، وعرش القلب
اذا اهتزَّت اوتارُك ونفخت ناياتك ، سُمع صداها في جوانب الفؤاد ، وارتفعت النفس على اجنحتها الى اعلى مراتب الهناء
انتِ تتلاعبين بالنفوس !
فمن مسرَّةٍ الى حزن ومن هوَس الى سكينة
كم من مرَّةٍ أسلتِ ماء شؤوني ، وانتِ ترافقين ميتاً الى مقرّه الاخير ، ولآلاتك اذين كأنين الثكالى
وكم من مرة ارثيتِ القلوب من صدورهـا ، في مرقص تتدفق فيه نغماتك ، تدفُّق السواقي ، فوق قاسية الصخور

وكم من مرّة رفرفتِ باجنحة السلام والسكون ، فوق قلوب تهيجت ، واعصاب تشنجت ، وعقول تزعزعت

فكنتِ لها كالنسيم العليل ، يهبُّ بعد القيظ ، او كسكون البحر بعد هيجانه

. . .

أما سمعتم ما فعلت بالجنود!! ، تدفعهم دفعاً الى القتال ، وترسلهم سكارى بين مشتبك النصال

دوي المدافع وصفير الرصاص ، صهيل الخيل وصلصلة السيوف ، انين الجرحى وضجيج العساكر ، تنبعث جميعها من ذلك السهل الاجنح

يصاحبها درداب الطبول ، وصياح الاصوار

فيا لها من موسيقى تكون للجبان شجاعة ، وللشجاع اجنحة تطير به الى حومة الوغى .

. . .

واذا دخلتَ احدى الكنائس «القوطية»

ووقفت متخشعاً في عظمة سكونها وارتفاع سمائها

واندفعتْ من صدرها اصوات ملائكية

وتنهّد الارغن في انابيبه

فارتجفتْ كأن قد نُفخ فيها روح الحياة ، فتنفّست بين شجيٍّ وفخيم

فاجتمعت نغمات المرتلين ونغمات الآلات

واخذت تطوف في جوانب الكنيسة ، وتتجاوب من حنيّةٍ الى حنيّة ، وتتهادى من سماء الى سماء

تتموج في الهواء كانك ترى ارواحها

تعلو تارة وتنحطُّ اخرى

وتدور كاللولب على نفسها ثم تذهب صُعُدًا كانها تطلب منفذاً الى السماء

وترافقها نفوس العابدين وبخور المذابح

إذن لشعرتَ بسحرها وجلال قدرها

. . .

الاذا ترتفعين الى السماء ايتها الارواح اللطيفة ؟ !
انا هبطتُ من السماء ، والى السماء اعود
انا لغة الملائكة حول عرشهِ تعالى
أَسمَعَنا الله اناشيدَك ايتها الموسيقى في جنّات الخلود وامام عرش النور
انتِ على الارض شيءٌ من السماء
ولكن اين انتِ من موسيقى القائلين :
قدوس قدوس قدوس

مطبوعات شرقيّة جديدة

Tharaud (Jérôme et Jean) : Le chemin de Damas. 1 vol. in-16, Paris, Plon, Prix 7 f.

طريق دمشق

وضع هذا الكتاب الاخوان تارو بدعوة الجنرال غورو الذي عرض عليهما السفر الى سوريّة ليكتبا عنها بقلمهما السيّال كما كتبا عن مراكش . فطافا انحاءَ بلادنا واختارا بين مشاهدهِ المتنوّعة ما استحسناهُ لقرائهما فبسطا الكلام في امور شتى ممّا يجهلهُ العموم في فرنسة من تاريخ وآثار واخلاق . وصفا كلَّ ذلك على صورة حيّة مؤثّرة ليس فيها شيء من تصنّع وهوس لامرتين في رحلتهِ الى سوريّة سنة ١٨٣١ . وممّا استسلم فيهِ الكاتبان الى مخيّلتهما فتجاوزا حدود الحقيقة ما كتباهُ عن آلهة سوريّة ادونيس وعشتروت ومقام دفنه ج . ل

Colonel Andria: La vie militaire au Levant. En colonne pendant un an dans le Nord Syrien et en Mésopotamie, mars 1920-mars 1921 -siège d'Aintab. 1 *vol.* 8°, *Cartes et Croquis*, 1923, *Paris, Charles-Lavanzelle. et Cie*

العيشة العسكريّة في الشرق

قد تشوّهت حقيقة الوقائع التي حصلت من آذار ١٩٢٠ الى آذار ١٩٢١ في